فكاهات

رواية

الفوز بعد الفوت

بقلم حضرة الكاتبة السيدة لبيبة هاشم

وكنتَ اذا ارسلت طرفك رائداً لقلبك يوماً اتعبتك المناظرُ
رأيتَ الذي لا كلهُ انت قادرٌ عليهِ ولا عن بعضهِ انت صابرُ

حدث في مدينة بيروت ان شاباً يدعى جبرائيل قدم اليها من مدينة حلب الشهباء واكترى لنفسهِ غرفةً مفروشة في جهة يقال لها مينآء الحصن وهو مكان تكتنفهُ السهول والغياض الزاهرة والمناظر الطبيعية الانيقة ويزيدهُ تكسر امواج البحر المتوسط على شواطئهِ رونقاً وجمالاً فتجلو زرقتهُ عن الصدر الهموم وينفي صوت عجيجهِ عن القلب الشجون . وكان الفتى ربعة القوام عريض الجبهة حادّ البصر اسود العينين والشعر تدل ملامحهُ على الذكآء وتوقد الذهن . اما سبب قدومهِ فانهُ كان قد اصدر جريدة سياسية يخدم بها وطنهُ فلم يشعر يوماً الا وقد صدر اليهِ الامر بتوقيفها الى أجَلٍ غير مسمًّى لانهُ تطرّف في بعض مباحثها السياسية الى ما لا يوافق مصلحة الحكومة وبذلك أُقفل امامهُ باب الرزق واصبح من جرآء ذلك في ضيق شديد فترك وطنهُ وذهب هائماً على وجههِ يبحث عن

وسيلة يجدد بها بنآء ما هُدم من مستقبلهِ حتى وصل الى بيروت فاستوقفهُ ما عاين فيها من حسن الموقع وجودة الاقليم اللذين لا يجهلهما كل من ساقهُ الحظ لمشاهدتها فضلاً عن انهُ وجد ان سوق الآداب والعلوم رائجة فيها لتقدم اهلها في المعارف والحضارة فصمم على الاقامة بها ومزاولة صناعة الانشآء والتدريس واعلن قصدهُ على صفحات بعض الجرائد

ولما كان اليوم الاول من دخولهِ الغرفة الجديدة جلس على متكإٍ قرب النافذة واخذ يجيل نظرهُ في الاماكن المجاورةِ فرأى امامهُ سهلاً فسيح الجوانب قد كستهُ يد الربيع حُلَلاً مختلفة الاشكال متعددة الالوان يمرّ عليها النسيم فتتماوج تيهاً ودلالاً ويُسمع لها حفيفٌ اشبه بمناغاة الطفل او تغريد الاطيار يمازجهُ صوت امواج البحر المتلاطمة بالقرب منهُ وهي متتابعة الهجوم يخالها الرآئي قريبة الوصول اليهِ ولكنها لا تلبث ان تعود القهقرى وقد تمزق شملها كبنات نعش وبالجملة فانهُ منظر بهيج ينعش القلب ويذهب بالمرء الى عالم التصور والخيال

وبينما كان جبريل يرسل نظرهُ في تلك الجهات اذ رأى على مسافةٍ قريبة قصراً يفوق كافة المنازل المجاورة في حسن البنآء وزخرفة النقش تكتنفهُ حديقةٌ حافلة بالاشجار مزدانة بالازهار يتخللها طرق وارصفة منقوشة بالحصى الملونة والصخور الصناعية تقذف منها المياه فتجري منسابةً حولها تروي النبات وفي احدى نوافذهِ كانت فتاة جالسةً تتعاطى بعض الاعمال اليدوية وقد ظهر قسمٌ من وجهها الورديّ البديع تتدلى حولهُ ضفائر شعرها كاسلاك من الذهب

فلبث الشاب محدقاً اليها ببصرهِ متلذذاً بهذا المشهد اللطيف الى ان كانت منها التفاتة فصادفت عيناها عيني جارها الحديث اذ كان لم يزل متفرساً فيها وقد ادهشهُ ما رأى من جمال طلعتها ولطف ذاتها فاضطربت الفتاة لدى مشاهدتهِ على تلك الحال واسرعت فقرّت من امامه كالظبي النافر وقد صبغتها حمرة الخجل

ومن تلك الساعة بدأ جبرائيل يشعر بجاذب يجذبهُ الى الجلوس بقرب النافذة ليتمتع بمرأى جارتهِ التي لم تكن اقل منهُ شغفاً بذلك

ولم يمضِ اسبوع على وجود الشاب في المدينة حتى توفرت لديهِ الاشغال بما يكفل لهُ حسن حاضرهِ فعُين منشئاً لبعض الجرائد وكثر لديهِ طالبو العلم فكان يعطي دروساً متفرقة في ساعات معينة فحسنت حالهُ وتوفرت موارد ربحهِ

***

ولما كان بعض الايام وردت على جبرائيل رقعةٌ من احد الموسرين واسمهُ نعمان بك يدعوهُ لاعطآء دروس في منزلهِ فسار اليهِ يتقدمهُ خادم صاحب الرقعة الى ان انتهى بهِ الى باب منزل جارتهِ ولما صار امام الباب وقف الخادم وقال تفضل ادخل يا سيدي . فلبث جبرائيل واقفاً كالتمثال يفكر فيما عساهُ ان يكون من هذه الدعوة فتارةً يخيَّل لهُ انها حيلةٌ عمدت اليها حبيبتهُ لاستقدامهِ ثم يغالط نفسهُ لان الدعوة كانت من ابيها وطوراً يظن انها ربما باحت الى ابيها بحالها وكاشفتهُ بعواطفها فرام استدعآءهُ ليختبر حالهُ وهكذا كانت تتقاذفهُ الافكار وتذهب بهِ

الآمال الى ذروة المجد فيخيَّل لهُ ان السعادة تدنو منهُ وانهُ سيحصل على تلك الدرة الثمينة فيهنئ نفسهُ بهذا الفوز السريع

واخيراً دخل بصحبة الخادم الى غرفة الاستقبال وكانت مزينة باحسن الرياش وفي صدرها رجلٌ يبلغ الخمسين من العمر هو نعمان بك فاستقبل الاستاذ بابتسام وبعد ان استقرّ بهما الجلوس ذكر لهُ انهُ يروم تعليم ابنتهِ مبادئ اللغة الفرنسوية فاجابهُ الى ذلك مسروراً

ومضت تلك الليلة وجبرائيل يحلم الاحلام الجميلة منتظراً بقلبٍ متلهب دنو الساعة الاولى التي يمكنهُ فيها التمتع بقرب فاتنتهِ التي اصبحت تلميذتهُ كما زعم فكان يرى الدقائق تمر بهِ كالايام والساعات كالاعوام ولم يصدق ان حان الوقت حتى هرول مسرعاً الى منزل نعمان بك حيث أُدخل غرفة التدريس في الطبقة السفلى فوجد التلميذة تنتظرهُ هناك والى جانبها حاضنتها فتأملها جبرائيل واذا هي ليست تلك التي ينتظرها بل كانت فتاةً تبلغ الثالثة عشرة من العمر جميلة المنظر فعلم انها لا بد ان تكون شقيقتها لما وجد بينهما من المشابهة فشرع في تعليمها وفكرهُ شارد في عالم آخر ونظرهُ متجهٌ ابداً نحو الباب منتظراً من وقتٍ الى آخر دخول مالكة فؤادهِ اذ لم يكن عندهُ ريب في انها ستحضر متى علمت بوجودهِ . ولكن مضى الوقت وحان لهُ الانصراف وهي لم تحضر فنهض كاسف البال وخرج وقد كادت تفنى منهُ الآمال لو لم يلتمس لها فؤادهُ بعض الاعذار فعلل نفسهُ برؤيتها في اليوم التالي ولكنهُ كان كالقابض على الريح اذ مضى عليهِ اليوم الثاني والثالث والاسبوع الرابع والخامس والشهر السادس والسابع دون ان تمن

عليهِ بزورة او ترحم فؤادهُ بنظرة . واخيراً عيل صبرهُ وعلم انهُ في وادٍ وهي في واد وان لا دخل لها في دعوتهِ بل ان الاتفاق اوقع اختيار الاب عليهِ لتعليم ابنتهِ الصغرى ومن ذلك الحين تراكمت عليهِ الاحزان واشتدّ بهِ اليأس ولا سيما لانهُ لم يكن يرى على محياها الجميل اشارة تفيد مشاركتهُ في ذلك الوجد والقلق او حركةً تشير الى اسباب الجفآء والصد بل كانت تظهر كل يوم في نافذتها باسمة الثغر مشرقة الجبين كأن لا علم لها بشيء مما يجري حولها ولا ما يقاسيهِ ذلك المسكين . فحمل ذلك منها على عدم الاكتراث بحالهِ ووجد لها عذراً في ذلك وهو تباين منزلتيهما من حيث الرفعة والغنى فرأى ان الابتعاد عن ذلك المكان خير وسيلة للسلوّ واعظم مساعد على النسيان وكتب الى نعمان بك يخبرهُ بعدم استطاعتهِ الاستمرار على تعليم ابنتهِ ويسألهُ الاعفآء فاجابهُ ذاك الى طلبهِ بعد ان ضرب لهُ موعداً يوافيهِ فيهِ الى منزلهِ لاجرآء الحساب بينهما

وهكذا حضر جبرائيل في الوقت المعين لاستيفآء الاجرة ووداع ذلك المنزل المحبوب الى الابد ولكنهُ لم تطأ قدماهُ الباب الخارجي حتى وقف مبهوتاً اذ رأى شخص حبيبتهِ يتمايل بين الاشجار وهي تحجبها تارة وتظهرها اخرى فتبدو من خلالها تقاطيع جسمها البديع وهي مرتدية ثوباً حريرياً تحاكي الوانهُ ازهار الربيع التي كانت منتشرة حولها تغطي قدميها الصغيرتين . فلم يشعر جبرائيل الا وقد صار امامها كأن يداً قويةً دفعتهُ الى ذلك المكان ثم وقف بغتةً ولم يدر كيف يفاتحها الحديث

اما هي فحين ابصرتهُ توقفت فجأةً كمن مسهُ سلك كهربآئي ثم ما

لبثت ان اسرعت نحوهُ باسمة توشك شدة الفرح ان تتمّ بخفايا ضمائرها فبادرها بالسلام بينما كانت ترحب بهِ ثم دعتهُ الى الجلوس على مقعدٍ هناك وبعد سكوت دام بضع دقائق قالت لهُ وقد توردت وجنتاها اني اهنئ نفسي بقدومك يا سيدي ولا ريب في ان ابي سيسر كثيراً بزيارتك هذه التي اؤمل انها تكون فاتحة الزيارات بيننا . فاجابها اني اشكر كرم اخلاقكِ يا سيدتي واخبركِ مع الاسف ان زيارتي هي خاتمة الزيارات بيننا . فاجابتهُ مكتئبةً وكيف ذلك . قال لقد سبقت فطلبت الى والدكِ ان يعفيني من تعليم ابنتهِ وها انذا اتيت للمرّة الاخيرة تلبيةً لدعوتهِ و... فقاطعتهُ قائلةً وهل كنت انت الاستاذ الذي وكل اليهِ ابي تعليم شقيقتي كل هذه المدة . قال نعم يا سيدتي ولم يسعدني الطالع بمشاهدتكِ يوماً مع طول تعلقي بهذا الامل . قالت يا للاسف فاني قد علمت ان استاذاً يحضر في كل يوم لتدريس شقيقتي غير انهُ لم يخطر لي ان اتينهُ مرةً ولا عرفت من امرهِ سوى ان اسمهُ جبرائيل كما كانت تقول شقيقتي . فاجابها وقد اغرورقت عيناهُ اجل هو اسم هذا الشقيّ البخت الذي ترينهُ امامكِ وقد حضر ساعياً الى حتفهِ بظلفهِ اذ اصاب فؤادهُ من سهام اليأس ما قطع معهُ الامل من الحصول على مبتغاهُ فسعى للابتعاد عن هذا المنزل المقدس الذي رأى فيهِ علة شقآئهِ

فحققت لهُ ان لا علم لها بشيءٍ مما يذكرهُ ثم دارت بينهما الاحاديث وفي آخر الامر تعاهدا على الحب واقسم كلٌّ منهما أن يجعل حياتهُ وقفاً على الآخر ولا يميل الى سواهُ ... وهنا قطع حديثهما وصول الاب وهو

ينادى ماري ماري واذ أبصر جبرائيل الى جانبها هش لهُ ودعاهُ الى غرفة الاستقبال حيث خلا كلٌّ منهما بصاحبهِ حيناً وبعد ذلك خرج جبرائيل كاسف البال حزيناً لان نعمان بك رفض قبولهُ صهراً لسبب ضيق ذات يدهِ

***

واعيا جبرائيل وجود وسيلةٍ تتوفر بها لديهِ الثروة في مدينة بيروت لقلة موارد الكسب فيها فاضطر ان يسافر الى الاسكندرية فالقاهرة فودع حبيبتهُ سرًّا وتبادلا التذكار بعد ان كررا الاقسام على حفظ العهود ولم يمضِ القليل على وصولهِ حتى وُفق الى خدمةٍ في بعض دوائر الحكومة فكان يمني النفس بالترقي القريب. وكانت حينئذٍ قد جُهِّزت حملة لفتح السودان تحت قيادة غردون باشا وعُيّن جبرائيل من جملة الذين يرافقون الحملة فوجم اولاً واستآء غير انهُ ما لبث ان افترّ ثغرهُ ابتساماً لما تجلى لهُ من الآمال فسافر في جملة الجيش وكان يحضر معهُ مواقع القتال وهو غير مبالٍ بما لعلهُ يصيبهُ من غوائل الحرب طمعاً في الاقتراب من حبيبتهِ وارضآء ابيها واظهر من الجرأة والاقدام ما حببهُ الى وليّ امرهِ وفتح لهُ باب الرجآء في الترقي . غير ان الدهر لم يلبث ان قلب لهُ ظهر المجنّ وبدَّد جيش آمالهِ بوقوع الفرقة الذي كان فيها في اسر قومٍ لا يعرفون للشفقة معنىً فاستباحوا دمآء البعض منهم واسروا البعض الآخر وكان جبرائيل من جملة من أُسر فتمنى لو اتبعوهُ باخوانه القتلى تخلصاً من تلك الحياة الثقيلة والعذاب المستمرّ . فلبث في الاسر مدة ثلاث عشرة سنة ذاق فيها من نكال الاسر ومرارة العيش ما لا يحيط بهِ وصف وحدثتهُ نفسهُ

مراراً بالانتحار ثم كان يعاودهُ الامل في التخلص والوصول الى لقآء حبيبتهِ التي لم يكن لهُ تعزيةٌ سوى ذكرها والنظر الى نوطٍ لطيف كانت قد اهدتهُ لهُ قبل رحيلهِ فعلقهُ بين صدرهِ وقميصهِ وجعل ينظر اليهِ من وقتٍ الى آخر ويغصّ بالحسرات . وفي ذلك الحين بلغهُ خبر قدوم الجيوش المصرية والانكليزية لفتح السودان فلمع امام عينيهِ بارق الامل وجعل يحاول الهرب من ايدي الاعدآء فتمّ لهُ ذلك بعد عنآءٍ شديد وذهب فانضمّ الى الجيوش الفاتحة بعد ان اطلع القائد العام على حقيقة امرهِ وبينا كان ذات يومٍ مع صفوف المحاربين اصابتهُ رصاصةٌ من يد العدوّ فخرَّ صريعاً فاحتملهُ رجال فرقتهِ الى المستشفى حيث وضعوهُ على فراشٍ في احدى الغرف وحضر الطبيب لضمد جراحهِ وبعد الفحص اعلن انهُ لا امل في حياتهِ

***

ولما دنا مني السياق تعطفت عليَّ وعندي عن تعطُّفها شغلُ
اتت وحياضُ الموت بيني وبينها وجادت بوصلٍ حين لا ينفع الوصلُ

مرّت على جبرائيل اربع وعشرون ساعةً وهو يتقلب بين الاوجاع والآلام ورشدهُ غائبٌ لا يعي مما حولهُ شيئاً . ثم عرضت لهُ انتباهةٌ وهي الانتباهة الاخيرة ففتح عينيهِ فلم يرَ عندهُ احداً سوى راهبةٍ من جمعية الصليب الاحمر اللواتي خصصنَ انفسهنَّ لخدمة المرضى وكانت جاثيةً قرب سريرهِ تنظر في النوط الذي على صدرهِ وتبكي بدموعٍ حارة وتسأل لهُ الشفآء ممن عينهُ لا تنام . وكان الجريح في حال غيبوبتهِ يتلفظ من وقتٍ

الى آخر بكلماتٍ متقطعةٍ يتخللها اسم ماري احياناً فلما فتح عينيهِ وقع نظرهُ على الراهبة فتبسم شاكراً عنايتها ثم اطبق جفنيهِ وظهر على وجههِ بعض التأثر وجمجم بكلماتٍ فهمت منها قولهُ آه ما اشبهها بماري ثم تنهد وقال ماري حبيبتي ها انذا اموت فدى عينيكِ . وعند ذلك صاحت الراهبة آه يا جبرائيل رفقاً بي . فتنبه الجريح لدى استماع ذلك الصوت وحدّق بها ملياً واذ تحققت لهُ معرفتها ورأى خاتمهُ في يدها ارتعش ارتعاشاً شديداً واشتدّ بهِ التأثر بحيث منعهُ خفقان قلبهِ عن الكلام فاخذ يديها المبللتين بالدموع وضمها الى صدرهِ وصاح بصوتهِ الضعيف المتقطع ماري ماري. فقالت جبرائيل انا هي تلك الشقية فارحم قلبي . فكرّر قولهُ ماري ماري ثم قبل يديها ثانيةً وساد السكوت حيناً كانت في اثنائهِ تتساقط دموعها بغزارة فتمتزج فوق ايديهما المشتبكة بعرى الدقائق الاخيرة الباقية لهُ من الحياة

واخيراً اشار اليها ان تخبرهُ شيئاً من امرها فقالت اني بعد ان مضت عليَّ عدة سنواتٍ ولم يأتني خبرٌ منك يئست من لقائك فانقلبت صورة الدنيا في عينيَّ ولم اعد اجد فيها ما يحبّبها اليَّ ففضلت عليها الحياة في هذا الثوب واشارت الى ثوبها الاسود الرهباني . فقال شكراً لكِ ايتُها الملك الكريم وما كاد يتمّ هذه الالفاظ حتى تلاشت قوتهُ وعلت جبينهُ صفرة الموت ورأت ماري ان ساعتهُ قد دنت فاكبَّت عليهِ ترش وجههُ بدموعها الحارّة ففتح عينيهِ مرة اخرى وقال استودعكِ الله . . اذكريني يا ماري . . ثم فاضت روحهُ